٦ ـ الميسر والأزلام

للأستاذ عبد السلام محمد هارون

العامل الديني :

كان « هبل » أعظم صنم لقريش فى مكة ، وكان مكانه فى جوف الكعبة ، وفيه يقول ابن الكلبي[1] : « وكان فيما يذكر من عقيق أحمر ، على صورة الإنسان ، مكسور اليد اليمنى ، أدركته قريش كذلك فجعلوا له يداً من ذهب » . وهو الذى قال له أبو سفيان بن حرب حين ظفر يوم أحد :

أعل هبل !

— أى أعل دينك — فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم :

الله أعلى وأجل ! !

عند هذا الصنم الجليل القدر لديهم كانت توضع « الأزلام » ، ويقوم الكهان أو السدنة بإجالتها وإفاضتها لمن يريد الاستقسام ، إعظاما للأمر الذى يبغونه ، فهم يختارون موضع القضاء فى أقدس مكان لهم ، وإعظاما للحكم الذى يرتضونه ، فإن الذى حكم به هو سادن الكعبة ، أو أحد كهانهم

فكانوا يذهبون إلى « هبل » ، ومعهم (مائة درهم) و (جزور) ، ويعطونها لصاحب القداح الذى يضرب بها[2] ، ثم يقربون صاحبهم الذى يريدون الحكم فى نسبه إن أرادوا ، ثم يقولون : « يا إلهنا ، هذا فلان بن فلان قد أردنا به كذا وكذا ، فأخرج الحق فيه ! » ثم يقولون لصاحب القداح : اضرب ! فيجيل القداح ويفيضها ، فإن خرج (منكم) كان منهم وسيطا ، وإن خرج (من غيركم) كان حليفا ، وإن خرج (ملصق) كان على منزلته ، لا نسب له ولا حلف

وإن استشاروه فى أمر يقتضى (نعم) أو (لا) فخرج (نعم) عملوا به ، وإن خرج (لا) أخروا الأمر عاماً كاملا ثم أتوا مرة

(١) الأصنام ص ٢٨

(٢) قال أبو حيان فى تفسيره : « فالمائة للضارب بالقداح ، والجزور ينحر ويؤكل »

عاصفاً ، تجلى فيه غضب الشيخ الحليم وتحفز الطالب الطلعة . ولا بأس أن نوردهنا حديث ذلك اللقاء وإن كنا نسبق بذلك ترتيب الحوادث قليلا ؛ فقد كان المازنى يومذاك فى آخر عهده بمدرسة المعلمين ، وكان يؤدى الامتحان النهائى للتخرج ، وكانت لجنة الامتحان الشفوى فى اللغة العربية برياسة الشيخ حمزة ومن أعضائها الشيخ عبد العزيز شاويش والأستاذ عاطف بركات . . « فقال أحد إخوانى بعد خروجه من الامتحان أن الشيخ حمزة يفتح كتاب النحو والصرف ويطلب من الطالب أن يتلو الفصل الذى يقع عليه الاختيار . ولم نكن ندرس لا نحواً ولا صرفاً فى المدرسة لأن الدراسة كانت مقصورة على الأدب . فأيقنا بالفشل وجاء دورى فدخلت وأنا واثق من الرسوب وجلست أمامه فتناولنى كتاب مقدمة ابن خلدون فقرأت . ولا أزال أذكر فاتحة الكلام وهى « إعلم أن العدوان على الناس فى أموالهم ذاهب بآمالهم فى تحصيلها » إلى آخره ، فقال ضع الكتاب فوضعته . فسألنى عن العدوان والفعلين عدا واعتدى وانتقلنا إلى الصيغ المختلفة التى يكون عليها الفعل « اعتدى » مثل «اعتديا» للماضى المثنى و « اعتديا » للأمر ، فسألنى لماذا كان الماضى بالفتح والأمر بالكسر فلم أعرف لهذا سببا وقلت إنه لا سبب هنالك سوى أن العرب نطقوا بها هكذا . فدهش لهذا الجواب وقال ولكن لهذا سببا . قلت إن اللغة سبقت النحو والصرف ، وكل هذه القواعد موضوعه بعدها ، وما دمت أنطق كما كان العرب يفعلون فإن هذا يكفى ولا داعى للبحث عن سبب مختلق . فغضب وظهر هذا على وجهه فلم أبال بغضبه ، وحدثت نفسى أنه خير لى وأكرم أن أسقط بخناقة من أن تكون علة سقوطى الجهل . وأصررت على رأيى وكاد يحدث مالا يحمد ، لولا أن المرحوم الشيخ شاويش تدارك الأمر ، فقد نظر فى ساعته ثم التفت إلى الشيخ حمزة وقال « العصر وجب يا مولانا » فنهض الشيخ وهو يقول « إى نعم » وذهب للصلاة ونسينى فكان فى هذا نجاتى » .

الكلام بقية

محمد محمود حمدان

أخرى يستقسمون بالأزلام [٣]

بهذا العامل الديني ، وبهذا الشعور الروحي الوثني استقسم عبد المطلب بن هاشم مرتين :

١ — في حفر بئر زمزم [٤] ، حينما أمر في منامه عدة مرات بحفرها ، وقام ليقضي ما كتب عليه في منامه ، فحفر في البئر — ولم يكن له من الولد حينئذ إلا الحارث بن عبد المطلب — فلما تمادى به الحفر وجد فيما حفر غزالين من ذهب خالص ، ووجد أسيافا قلعية وأدراعا ، فقالت له قريش : يا عبد المطلب ، لنا معك في هذا شرك وحق !! قال : لا ، ولكن هلم إلى أمر نصف بيني وبينكم ، نضرب عليها بالقداح . قالوا : وكيف نصنع ؟ قال : أجعل للكعبة قدحين ، ولي قدحين ، ولكم قدحين ، فمن خرج له قدحاه على شيء كان له ، ومن تخلف قدحاه فلا شيء له . قالوا : أنصفت ! فجعل قدحين (أصفرين) للكعبة ، وقدحين (أسودين) لعبد المطلب ، وقدحين (أبيضين) لقريش [٥] ، ثم أعطوا تلك القداح لصاحب القداح التي يضرب بها عند « هبل » ، فضربها على الغزالين فخرج (الأصفران) فكانا من نصيب الكعبة ، ثم ضربها أخرى على الأسياف والدروع فخرج (الأسودان) فكانا من نصيب عبد المطلب ، وتخلف قدحا قريش لم يظفرا بشيء . فضرب عبد المطلب الأسياف باباً للكعبة ، وضرب في الباب الغزالين من ذهب ، فأرضى بذلك نفسه وشعوره الديني العميق ، وحسم الخلاف بينه وبين قومه بما حكم به « هبل » ، وهو الذي لا يرد له قضاء !!

٢ — والمرة الثانية حينما نذر حين لقي من قريش مالقي عند حفر بئر زمزم واستخفافهم به لقلة ولده [٦] : لئن ولد له عشرة نفر ثم بلغوا معه حتى يمنعوه لينحرن أحدهم لله عند الكعبة !! فلما توافى بنوه عشرة وعرف أنهم سيمنعونه جمعهم ثم أخبرهم بنذره ، ودعاهم إلى الوفاء لله بذلك ، فأطاعوه وقالوا : كيف نصنع ؟ قال : ليأخذ كل رجل منكم قدحا ثم يكتب فيه اسمه ثم ائتوني . ففعلوا ثم أتوه ، فدخل بهم على « هبل » في جوف الكعبة ، وكان منصوبا على بئر يجمع فيها ما يهدى إلى الكعبة . فلما أخذ صاحب القداح القداح ليضرب بها قام عبد المطلب عند « هبل » يدعو الله جاهدا ، ثم ضرب صاحب القداح فخرج القدح على (عبد الله) وهو أعز ولده عليه ، فأخذ عبد المطلب بيده وأخذ الشفرة ، ثم أقبل به إلى إساف ونائلة [٧] ليذبحه ، فقامت إليه قريش من أنديتها ، وكذلك قام بنوه ، فقالوا : والله لا تذبحه أبدا حتى تعذر فيه ! لئن فعلت هذا لا يزال الرجل يأتي بابنه حتى يذبحه ، فما بقاء الناس على هذا ؟!

وكان أن لجئوا إلى عرافة في « خيبر » يسألونها في ذلك ، فقالت : كم الدية فيكم ؟ قالوا : عشر من الإبل . قالت ، فارجعوا إلى بلادكم ثم قربوا صاحبكم وقربوا عشراً من الإبل ، ثم اضربوا عليه وعليها بالقداح ، فإن خرجت على صاحبكم فزيدوا من الإبل حتى يرضى ربكم ، وإن خرجت على الإبل فانحروها فقد رضي ربكم ونجا صاحبكم !

فرجعوا إلى مكة ، وضربوا بالقداح بين عبد الله وبين عشر من الإبل ، فخرج القدح على (عبد الله) ! فزادوا عشرا وضربوا ، ثم زادوا عشرا وعشرا حتى بلغت مائة ، فضربوا فخرج القدح على الإبل ، فقالت قريش ومن حضر : قد انتهى رضا ربك يا عبد المطلب . فزعموا أن عبد المطلب قال : لا والله حتى أضرب عليها ثلاث مرات ! فضربوا ثلاث مرات توثيقا للأمر ، كل ذلك يخرج القدح على الإبل المائة . فنحرت ثم تركت لا يصد عنها إنسان ولا يمنع

فهاتان الحادثتان تدلان على مقدار خضوع سادة العرب وأشرافها لحكم الأزلام ، ومبلغ اضطرارهم وتقديسهم لأحكامها

تقديس الأزلام

وبلغ من تقديسهم للأزلام أنهم جعلوا في البيت الحرام صورة لإبراهيم عليه السلام ، وفي يده الأزلام التي يستقسم بها [٨]

(٣) السيرة ٩٧ — ٩٨ جوتنجن

(٤) السيرة ٩١ — ٩٧

(٥) هذا دليل آخر على أن أزلام الاستقسام لم تكن ذات نمط واحد ، أو نظام واحد

(٦) سبق القول أنه لم يكن له من ولده عند حفر زمزم إلا ولد واحد ، هو الحارث

(٧) إساف ونائلة : صنمان كان بمكة ، جعل أحدهما بلصق البيت والآخر بزمزم ، وكان ينحر عندهما ، وكانت الجاهلية تتمسح بهما . ياقوت

(٨) انظر السيرة ٨٢١

وفى حديث فتح مكة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم دخل البيت فرأى إبراهيم وإسماعيل بأيديهما الأزلام[٩]

قال ابن هشام[١٠] : « وحدثنى بعض أهل العلم أن رسول الله صلى الله عليه وسلم دخل البيت يوم الفتح فرأى فيه صور الملائكة وغيرهم ، فرأى إبراهيم عليه السلام مصورا فى يده الأزلام يستقسم بها ، فقال : قاتلهم الله ، جعلوا شيخنا يستقسم بالأزلام ؟ ما شأن إبراهيم والأزلام ؟! ما كان إبراهيم يهوديا ولا نصرانيا ، ولكن كان حنيفا مسلما وما كان من المشركين . ثم أمر بتلك الصور كلها فطمست »

وفى مسند أحمد[١١] برقم ٣٠٩٣ عن ابن عباس « أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لما قدم مكة أبى أن يدخل البيت وفيه الآلهة فأمر بها فأخرجت ، فأخرج صورة إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام ، فى أيديهما الأزلام ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم قاتلهم الله ! أما والله لقد علموا ما اقتسما بها قط »

الأزلام فى التاريخ الدينى القديم

نص القرآن الكريم على حادثين اثنين كان للأزلام فيهما نصيب ، ولكنها لم تكن على ما كانت عليه عند العرب من التقديس الوثنى ، بل كانت بمثابة القرعة التى سيأتى الكلام عليها :

الحادث الأول أشار إليه الكتاب الكريم فى قوله تعالى : « وما كنت لديهم إذ يلقون أقلامهم أيهم يكفل مريم » آل عمران ٤٤

والحادث الثانى أشار إليه قصة يونس : « فساهم فكان من المدحضين » . الصافات ١٤١

١ — أما الأول فهو ما كان من أمر زكرياء عليه السلام . روى أن حنة حين ولدت مريم لفتها فى خرقة وحملتها إلى المسجد فوضعتها عند الأحبار أبناء هارون — وهم فى بيت المقدس كالحجبة فى الكعبة — فقالت لهم : دونكم هذه النذيرة ! فتنافسوا فيها لأنها كانت بنت إمامهم وصاحب قربانهم ، وكانت بنو ماثان رءوس بنى إسرائيل وملوكهم ، فقال لهم زكريا : أنا أحق بها ، عندى خالتها . قالوا : لا حتى نقترع عليها . فانطلقوا وكانوا سبعة وعشرين إلى نهر الأردن فألقوا فيه (أقلامهم) ، فارتفع قلم زكريا ورسبت أقلامهم فتكفلها

واختلف المفسرون فى هذه الأقلام فقال بعضهم : هى أقلام الكتابة كانوا يكتبون بها التوراة ، فاختاروها للقرعة تبركا بها وقال بعضهم : الأقلام هنا الأزلام ، وهى القداح

وقال أبو مسلم : كانت الأمم يكتبون أسماءهم على سهام عند المنازعة ، فمن خرج له السهم سلم له الأمر . وهو شبيه بأمر القداح التى يتقاسم بها الجزور[١٢]

وقال ابن قتيبة[١٣] : وكانوا تشاحوا فى كفالتها ، فضربوا بالقداح ، وهى الأقلام ، فخرج قدح زكريا فكفلها

٢ — وأما الثانى فما كان من أمر السفينة التى ركب فيها يونس عليه السلام فرارا من قومه ، حين ذهب مغاضبا ، فلما أبعدت السفينة فى البحر ويونس فيها ركدت ، فقال أهلها : إن فيها لمن يحبس الله السفينة بسببه فلنقترع . فأخذوا لكل منهم سهما على أن من طفا سهمه فهو ، ومن غرق سهمه فليس إياه . فطفا سهم يونس ، ففعلوا ذلك ثلاثا تقع القرعة عليه ، فأجمعوا على أن يطرحوه ، فألقى بنفسه فالتقمه الحوت[١٤]

وقصة يونس هذه — وتسمية كتب العهد القديم يونان — مذكورة بتفصيل فى سفر « يونان » ، جاء فى الإصحاح الأول :

« فقام يونان ليهرب إلى « ترشيش » من وجه الرب ، فنزل إلى يافا ووجد سفينة ذاهبة إلى ترشيش ، فدفع أجرتها ونزل فيها ليذهب معهم إلى ترشيش من وجه الرب . فأرسل الرب ريحا شديدة إلى البحر فحدث نوء عظيم فى البحر حتى كادت السفينة تتكسر . فخاف الملاحون وصرخوا كل واحد إلى إلهه وطرحوا الأمتعة التى فى السفينة إلى البحر ليخففوا عنهم . وأما يونان فكان قد نزل إلى جوف السفينة واضطجع ونام نوما ثقيلا. فجاء إليه رئيس النوتية وقال له : مالك نائما . قم اصرخ إلى إلهك

(٩) اللسان (قسم)
(١٠) السيرة ٨٢١ — ٨٢٢
(١١) الجزء الخامس بتحقيق الأستاذ أحمد محمد شاكر . وانظر أيضا رقم ٣٤٥٥ من المسند
(١٢) تفسير أبى حيان (٢ : ٤٤٢ ، ٤٥٨ — ٤٥٩) وكذا تفسير الزمخشرى (١ : ١٤٣)
(١٣) الميسر والقداح ٣٨
(١٤) تفسير أبى حيان (٢ : ٤٥٩)

عسى أن يفتكر الإله فينا فلا نهلك . وقال بعضهم لبعض : هلم نلقى قرعا لنعرف بسبب من هـذه البلية . فألقوا قرعا فوقعت القرعة على يونان . فقالوا له : أخبرنا بسبب من هـذه المصيبة علينـا . ما هو عملك ومن أين أتيت ؟ ما هى أرضك ومن أى شعب أنت ؟ فقال لهم : أنا عبرانى وأنا خائف من الرب إله السماء الذى صنع البر والبحر . فخاف الرجال خوفا عظيما وقالوا له : ماذا نصنع بك ليسكن البحر عنـا . لأن البحر كان يزداد اضطرابا . فقال لهم : خـذونى واطرحونى فى البحر فيسكن البحر عنكم لأنى عالم أنه بسببى هـذا النواء العظيم عليكم » .. « ثم أخذوا يونان وطرحوه فى البحر فوقف البحر عن هيجانه ، فخاف الرجال من الرب خوفا عظيما وذبحوا ذبيحة للرب ونذروا نذورا : وأما الرب فأعد حوتا عظيما ليبتلع يونان ، فكان يونان فى جوف الحوت ثلاثة أيام وثلاث ليال »

وبعد أن يسرد سفر (يونان) صلوات (يونان) فى جوف الحوت يقول : « وأمر الرب الحوت فقذف يونان إلى البر »

فهاتان القصتان على ما فيهما من حمل المفسرين الأقلام فيهما والمساهمة على معنى أزلام الجاهلية ، لا ريب أن ما فيهما من صنيع هو بعيد كل البعد عن صنيع أهل الجاهلية فيما كانوا يجعلون لتلك الأزلام من قداسة ومن شرائط دينية وتقاليد خاصة ، وإنما هاتان ضرب من (القرعة) لا يزيدان عن تلك شيئا ولا ينقصان شيئا

والنص الذى سقته من سـفر يونان مؤيدا أنها قرعة بعيدة عن الاستقسام الوثنى

التمرد على الأزلام

وقد بدت ظاهرة من ظواهر التمرد على تلك الأحكام الدينية فيما رواها ابن الكلبى [١٥] من أن امرأ القيس بن حجر أقبل يريد الغارة على بنى أسد ، فمر بذى الخلصة — وكان صنما ببالة [١٦] — وكانت العرب جميعا تعظمه ، وكانت له ثلاثة أقداح : الآمر ، والناهى ، والمتربص . فاستقسم عنده ثلاث مرات تخرج (الناهى) فكسر القداح وضرب بها وجه الصنم وقال : « عضضت بـ ... أبيك ! لو كان أبوك قتل ما عوقتنى ! »

ثم قال فى ذلك :

لو كنت ياذا الخلص الموتورا مثلى وكان شيخك القبورا
لم تنه عن قتل العداة زورا

ثم غزا بنى أسد فظفر بهم

قال ابن الكلبى : « فلم يستقسم عنـده بشئ حتى جاء الله بالإسلام ، فكان امرؤ القيس أول من أخفره »

(البحث بقية) عبد السلام محمد هارون

الرواية

مجلة القصص الرفيع

عادت أقوى مما كانت عليه

جمال أسلوب ، وحسن اختيار ، ودقة ترجمة ،

وفخامة مظهر

الاشتراك السنوى ١٠٠ قرش فى مصر والسودان ، ١٥٠ قرشا فى الممالك الأخرى

(١٥) فى كتاب الأصنام ص ٤٧ وعنه ياقوت فى معجم البلدان (الخلصة)

(١٦) بالة : واد مجاور لوادى بيشة ، من أرض تهامة فى طريق اليمن وفى صحيح الأخبار للعلامة محمد بن بليهد (١ : ٦٨) : وبالة باقية بهـذا الاسم إلى يومنا هـذا على شـاطئ بيشة الشمالى » . وقال ابن حبيب فى المحبر ٣١٧ عند الكلام على ذى الخلصـة : « وهو اليوم بيت فصار فيما أخبرت » . وقال البرد فيما نقله عنه ياقوت : « موضعه اليوم مسجد جامع لبلدة يقال لها العبلات »